تركتَ هذه الحياة أن ينصبوا لي الحرب مؤتلفين لا مختلفين، ومتظاهرين لا متدابرين، وألا يكفوا عن هذه الحرب حتى يدمروا ملكي تدميرًا، وأيهم ظفر بي فأنا أسيرته، يمسكني في قصره كما تُمسَك الإماء؛ لا يكرمني بالزواج ولا يؤثرني بالحب، وإنما يصبُّ عليَّ من العذاب ألوانًا ويسومني من الضيم فنونًا، وقد تقاسموا على ذلك بأغلظ الأيمان وأشدها إحراجًا، وكتبوا بذلك وثيقة أودعوها مكانًا أمينًا حصينًا، هناك في قاع البحر المحيط وراء أعمدة هرقل، وإني لأنظر إلى صحيفتهم هذه كما أنظر إلى وجهك الآن، وإني لأقرأ ما كتب فيها كما أتبين ملامح وجهك، وإني لقادرة — إن شئت — على أن آتيك بها قبل أن تقوم من مقامك، ولكن على أن تأخذها بيدك وتقرأها، ثم تعيدها إليَّ لأردها إلى مكانها؛ فقد سبق القضاء بأحداث لا بد أن تقع، وجرى القدر بأمور لا بد من أن تكون.»

قال الملك وقد اضطرب اضطرابًا شديدًا، وظهرت على وجهه أمارات الرضا والدهش جميعًا: «قد كنت أعلم يا ابنتي أن لك كما لأترابك من بنات الجن علمًا بالسحر ونفاذًا فيه وتصرفًا في دقائقه، وكنت أعلم أنك قد تفوقت عليهن في ذلك تفوقًا ظاهرًا كما تفوقت عليهن في كل شيء، ولكني لم أكن أقدر أنك قد بلغت من ذلك هذا المبلغ الذي أراه! فمن أين لك يا ابنتي هذا العلم؟ وكيف انتهيت من السحر إلى هذه المنزلة التي لم يبلغها قط أحد من فتياننا ولا من فتياتنا؟» قالت: «ذلك خليق أن يرد نفسك إلى الراحة وقلبك إلى الاطمئنان، فلا تحسب لما دبَّر هؤلاء الملوك حسابًا، ولا تخشَ عليَّ منهم غائلة.» قال الملك: «هو ذاك يا ابنتي، ولكني أريد أن أعرف كيف انتهيت إلى هذه المنزلة من العلم بالسحر والنفوذ إلى أسرار الكون؟» قالت فاتنة: «إنما انتهيت إلى هذه المنزلة لأني صرفت عن هذه الحياة الباطلة التي يحياها بنات الملوك في ظل آبائهن ناعمات بالعيش الرخيِّ، طامعات فيما تتكشف لهن عنه الأيام، مفكرات فيمن يسعى إليهن محبًّا أو متملقًا أو خاطبًا. صرفت عن هذا كله وعن أشباهه إلى النظر في حكمة الأولين والمحدثين، وإلى كثير من التجربة والاختبار، ما أعرف أن أحدًا عُنِي بمثلها، ولكن أتريد أن تنظر في صحيفة هؤلاء الملوك؟» قال الملك: «وإنك لقادرة على أن تأتي بها؟» قالت فاتنة: «قبل أن يرتد إليك طرفك.» ثم مدت يدها في الهواء وردتها فإذا فيها علبة صغيرة مربعة من معدن تحمل أختامًا كثيرة، فوضعتها بين يدي الملك، ثم أشارت إليها فإذا هي تفتح دون أن تمس أختامها بفساد ما، ثم تخرج منها قطعة رقيقة من رصاص فتدفعها إلى الملك، وينظر فيها ثم يردها إليها وقد بلغ منه الدهش مبلغه وانتهى السرور به إلى أقصاه، وهو يقول لابنته: «لا بأس عليك من هؤلاء الملوك مهما يدبروا ويقدروا، فما أرى إلا أنك ستردين كيدهم في نحورهم وستلقينهم بشرٍّ مما يلقونك به.»